مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
ISSN : 2392 - 5361
المجلد 4 العدد 1 / جوان 2018



زيارات ابن باديس إلى تونس بعيون وسائل إعلامها

أ. عبد الكريم طبيش
abd_tebb@yahoo.fr
المركز الجامعي عبد الحفيظ بو الصوف ميلة- الجزائر

تاريخ الاستلام: 2017/06/20 تاريخ التعديل: 2018/06/10 تاريخ قبول النشر: 2018/06/27

الملخص :

يتناول هذا البحث الموسوم بــــــ:" زيارات ابن باديس إلى تونس بعيون وسائل إعلامها"، مسألة تتعلق بالأثر الإيجابي لسيرة ابن باديس، وهي زياراته إلى القطر التونسي المتزامنة مع أحداث وطنية هامة في تاريخ الحركة الوطنية لأقطار المغرب العربي في ظل الاحتلال الفرنسي، ولقاءاته المتكررة مع شخصيات أدبية وعلمية آزرته في الدفاع عن ثوابت الأمة الجزائرية.

لقد تناول الباحثون زيارات ابن باديس الداخلية وألقوا الضوء على دوافعها وبينوا العبرة من الكثير منها سياسيا وعقديا، ومن المؤكد أن فحوى برامج هذه الزيارات خارج الوطن في أمس الحاجة إلى مقالات علمية أخرى تعمل على توثيق جهود أبناء الحركة الإصلاحية والأدبية في الجزائر في فترة الاحتلال، وتمكين منهج الاعتدال للمقاومة السلمية، وهذا ما سيتناوله المقال الآتي مجيبا عن التساؤلات الآتية:

هل تفاعل رواد الاصلاح والأدباء التونسيون مع زيارات ابن باديس؟ إلى أي مدى يمكن اعتبار زيارات الأدباء والعلماء عاملا مهما في نهضة الأدب العربي في الجزائر؟ ما هي أهم المؤسسات التي تجاوبت مع اهتمامات ابن باديس وزياراته إلى تونس، و فيم تتمثل جوانبها جوانبها الإيجابية؟

الكلمات المفتاحية: زيارات، ابن باديس، تونس، وسائل الاعلام، المغرب العربي.

Abstract:

Cette recherche intitulée « les visites d'Ibn Badis de Tunisie aux yeux de ses moyens de communication » traite le sujet de l'influence positive de la biographie d'Ibn Badis due à ses visites de la contrée tunisienne simultanée aux événements nationaux intéressants dans l'histoire du mouvement national des contrées du Maghreb arabe sous le patronage de la colonisation française ainsi qu'aux ses rencontres périodiques avec des personnalités littéraires et scientifiques qui le soutenaient souvent afin de défendre les constituants de la nation algérienne.

Les chercheurs ont abordé les visites internes d'Ibn Badis et ont éclairé leurs motifs. En outre, ils ont montré leur morale en politique ainsi qu'en idéologie incontestablement, l'essence des programmes des visites externes d'Ibn Badis demande profondément des autres articles scientifiques qui visent à inscrire l'effort des membres du mouvement réformiste et de la littérature en Algérie durant l'occupation et à appliquer la méthode de la modération dans la résistance pacifique.

Est-ce que les précurseurs de la réforme et les écrivains tunisiens ont été influencés par les visites d'Ibn Badis ? A quel point qu' un peut-on considérer les visites des écrivains et des savants facteur important dans la renaissance de la littérature arabe en Algérie ?

Qui sont les entreprises qui ont prêté attention à la visite d'ibn Badis de Tunisie et ont exposé ses côtés positifs ?

Keywords: *visits, Ibn Badis, Tunisia, media, Maghreb.*

مقدمة

كثيرا ما تحدّث الباحثون في العالم العربي والإسلامي عن زيارات العلماء والشّيوخ والمفكرين، وعن دورهم الذي لا غبار عليه في نهضة شعوب الأمة العربية والإسلامية، خاصة تلك التي كانت تحت سيطرة المحتل الأوروبي؛ سواء كان إيطاليا أو فرنسيا أو إسبانيا، ومن أشهر تلك الزيارات التي آتت أكلها؛ زيارة الإمام محمد عبده إلى الجزائر عام 1903م، والتي كان لها الأثر الكبير في نفوس الناس عموما والمنتفضين فكريا ضد الاحتلال من شيوخ ينتمون إلى الحركة الإصلاحية خصوصا أمثال: عبد الحليم بن سماية، وعمر بن قدّور، وعمر راسم. يقول عبد الرحمن الجيلالي(إذ أن الشيخ محمد عبده كان قد زار الجزائر شخصيا في صيف سنة ثلاثة وتسعمائة وألف، واتّصل بأبرز علمائها يومئذ، ومنهم الشيخ عبد الحليم بن سماية، وألقى دروسا في تفسير سورة العصر بجامع الحاج مصطفى الأكحل الذي لايزال قائما إلى اليوم بحي بلكور بمدينة الجزائر)1.

وأمام الآراء القائلة بأنّ **محمد عبده** عاد من زيارته إلى الجزائر بخفي حنين، وأن نهضة الجزائريين كانت رياحها قد هبّت من المغرب الأقصى نتيجة تلك الثّورات الثقافية التي دارت رحاها بين رجال الطّرق الصوفية العميلة للمحتل الفرنسي، والّتي يمثلها عبد الحي الكتّاني، وبين التي قامت كردّة فعل لذلك بقيادة(ابن شعيب الدكالي الذي قاومه بعنف شديد)[2]، ليس هذا فحسب بل(جاء من بعده محمد بن العربي العلوي الذي أشاع فكرة الإصلاح بين المثقفين المغاربة)[3].

زيارة الإمام محمد عبده إلى الجزائر ومكانتها

يشير عبد الملك مرتاض في كتابة فنون النثر الأدبي في الجزائر 1931 – 1954 إلى وجود بصمات عَبْدَوِيَّة في تلقيح عملية الإصلاح في الجزائر قائلا:(ومن المستبعد أن لا تكون هناك أثار مباشرة لهذه الزيارة التاريخية التي قام لها عالم من أبرز علماء المصلحين في العالم الإسلامي كله، والإبراهيمي نفسه يعترف بأن أراء محمد عبده كانت من العوامل التي هيأت لقيام حركة الإصلاح في الجزائر، تلك الآراء التي

كانت تصل عن طريق المنار طورا، وعن طريق مطبوعات أخرى طورا ثانيا، فإذا كان هذا حقا، فلم إغفال زيارة محمد عبده؟)[4].

والحقيقة التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار أثناء الحديث عن بعث الشعور الوطني والديني والقومي في نفوس الشعوب الإسلامية في العصر الحديث خاصة الجزائرية منها، هي قول الإبراهيمي وهو يسند إلى أول صيحة ارتفعت بالإصلاح في العهد الأخير إلى الإمام محمد عبده قائلا:(لا نزاع في أن أول صيحة ارتفعت في العالم الإسلامي بلزوم الإصلاح الديني والعلمي في الجيل السابق لجيلنا هي صيحة أمام المصلحين الأستاذ الإمام محمد عبده رضي الله عنه، وأنه أندى الأئمة المصلحين صوتا، وأبعدهم صيتا في عالم الإصلاح، فلقد جاهر بالحقيقة المرّة، وجهر بدعوة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الرجوع إلى الدين الصحيح، والتماس هدية من كتاب الله وسنة نبيه، والى تمزيق الحجب التي حجبت عنّا نورهما، وحالت بيننا وبين هديهما، مبينا بصوت يسمع الصمّ. وبلاغة تستنزل العصم؛ أنّ علّة العلل في سقوط المسلمين وتأخرهم وراء الأمم، وانحطاطهم عن تلك المكانة التي كانت لهم في سالف الزمن، هي بعدهم عن ذلك الهدي الروحاني الأعلى، وأنّه لا يرجي لهم فلاح في الدنيا وفي الآخرة، ولإصلاح حال يستتبع صلاح المآل، ولا عزّة تردّ عليهم عادية الغاصبين من الأجانب إلاّ إذا راجعوا بصائرهم، واسترجعوا ذلك الهدي الذي لم يغصبهم منهم غاصب، وإنّما هجروه عن طوع أشبه بالكره، واختيار أشبه بالاضطرار، فباءوا بالمهانة والصّغار، والضّعة والخسار)[5].

ولم يكتف الإبراهيمي بوصف دعوة الإمام عبده بكونها مزقت حجب الجهل أمام الشعوب المسلمة عامة فحسب بل جعلها صاخة لآذان الكثيرين من أصناف البشر الذين جعلوا أصابعهم في آذانهم؛ من متربصين بالإسلام، ومبطلين من تجار الولاية والكرامات، وعَبَدة الأجداث والأنصاب حتّى الجامدين من العلماء.

إنّ تأثر الإبراهيمي بدعوة الإمام عبده يظهر بقوة في تقاريره حول شخصيته السحرية التي وقف الأعداء جميعا على اختلاف مشاربهم وآمالهم صفا واحدا يكابدونه مؤلّبين عليه ألسنة النّاس من البسطاء، والأقلام من الطبقة المثقفة لينالوا منه. قال الإبراهيمي:(كان الإمام[6] أعجوبة الأعاجيب في الألمعية وبعد النظر وعمق التفكير وحدة النظر واستنارة البصيرة وسرعة الاستنتاج والمخبّات، حكيم بكل ما تؤديه هذه

الكلمة من معنى...)[7]. ثم أضاف(وبالجملة، الرّجل فذّ من أفذاذ الذين لم تكونهم الدّراسات وإن دقّت، ولا تخرجهم المدارس وإن تزقّت، وإنّما تقذف بهم قدرة الله إلى هذا الوجود، وتبرزهم حكمته في فترات متطاولة من الزّمن على حين انتكاس الفطرة واندراس الفضيلة، وانطماس الحقيقة، فيكون وجودهم مظهرا من مظاهر رحمة الله لعباده، وحجة للكمال على النقص، وإصلاحا شاملا، وخيرا عميما)[8].

هذه العبارة الواضحة في مفرداتها والبعيدة في معانيها والدقيقة في هدفها، لم تصدر إلاّ من نفس شعرت في يوم من الأيّام أنّ دعوة الإمام محمد عبده سواء من خلال زياراته أو إصداراته للشعوب الإسلامية قاطبة وللجزائريين خاصة ما هي إلاّ تيّار كهربائي أُوصلت أطرافه المتقطّعة منذ زمن انهزام المسلمين أمام زحف التّتار والمغول.

لسنا نريد في هذه العجالة أن نبسط الكلام في زيارة محمد عبده إلى الجزائر وإلى الأوطان الأخرى وأن نوفيها حقها من الدراسة، وإنّما اضطرّنا الحديث عنها ما ترتب عنها من آثار جمّة عادت على المسلمين أجمعين بنهضة إسلامية شاملة، هذه الدعوة دعت إلى العلم فتعلمت الشعوب، وإلى طرد المحتل فتحررت الأوطان.

ولا يسعنا هنا إلى أن نقول في مثل زيارة محمد عبده وغيره من العلماء إلى البلدان ما قاله رمضان حمود –- إن صحّ التشبيه –-في الشّعر الحقيقي:(إنّ الشّعر الذي لا يحرك همّة الشّعب ليتطلّع إلى الاستقلال والحريّة، ولا يذكّر بواجبه المقدس ووطنه المفدى، خيانة كبرى، وخنجر مسموم في قلب المجتمع)[9]، و(إنّ بيتا من الشّعر صدق صاحبه فيه، ونظر عصره بتأمل وإنصاف وبحث دقيق، خير من ألف مجلد من مجلدات التاريخ الحافلة بسرد ذلك العصر سردا)[10].

زيارات ابن باديس التحصيلية

تحدثت الباحثون في التاريخ والدراسات الأكاديمية عن رحلات ابن باديس إلى تونس والمشرق العربي، والتي كان الهدف منها تحصيل العلم، والتدرب على الأساليب الجديدة للدعوة إلى الدين الذي اكتنفته الكثير من خرافات شيوخ الطرقية العميلة للمحتل الفرنسي، حيث زار ابن باديس تونس أولا، ومكة والمدينة ثانيا، ولبنان ومصر ثالثا، وكل ذلك كان قبل أن يشتد عضده، ويبزغ اسمه في سجل علماء ودعاة النّهضة العربية الحديثة، ففي سنّ التّاسع عشر رحل إلى تونس قصْد تحصيل العلم

الصحيح من جامعها وعلى أيدي مشايخه الذين كان لهم الأثر العظيم في تكوين شخصيته الدعوية؛ منهم الطاهر بن عاشور، والأستاذ محمد النخلي القيرواني، والبشير صفر، والأستاذ محمد الخضر بن الحسين الذي كان لابن باديس الحظ في أن يدرس في بيته، والأستاذ محمد الصادق النّيفر، والأستاذ سعيد لعياضي الجزائري الأصل، والأستاذ أبو محمد بلحسن بن الشيخ المفتي النجار.

بعد أن نال ابن باديس الشّهادة العالمية وعاد إلى وطنه باشر مهنة التدريس بالجامع الكبير بمدينة قسنطينة، لكن بعد أن تحرك خصوم ابن باديس وكثرت مكائدهم لخطه الإصلاحي المتميز حدّثته نفسه يوما بالهجرة إلى مكة والمدينة، وتحققت له هذه الأمنية فزارهما، وكانت له من تلك الرحلة فوائد عظيمة، إذ التقى فيهما مرّة أخرى بشيخه حمدان الونيسي، ورفيق دربه محمد البشير الإبراهيمي، وكذلك الشيخ حسين أحمد الهندي الذي نصحه بالعودة إلى الجزائر التي كانت في حاجة ماسة إلى مثل نشاط ابن باديس وصلابته في الدفاع عن الحق، يقول ابن باديس في هذا الشأن:(أذكر أنّي لمّا زرت المدينة المنورة واتصلت فيها بشيخي الأستاذ حمدان لونيسي المهاجر الجزائري، وشيخي حسين أحمد الهندي أشار علي الأول بالهجرة إلى المدينة المنورة وقطع كل علاقة لي بالوطن، وأشار عليّ الثاني ـــــ وكان عالما حكيما ـــــ بالعودة إلى الوطن وخدمة الإسلام فيه والعربية بقدر الجهد، فحقق الله رأي الشيخ الثاني، ورجعنا إلى الوطن بقصد خدمته، فنحن لا نهاجر، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية بجميع مدعماتها في هذا الوطن)[11].

أثر شيوخ الزيتونة في تكوين شخصية ابن باديس

هذه نُتَفٌ من أقوال ابن باديس في بعض أشهر الأساتذة الذين زرعوا فيه الرّوح القومية والإسلامية، وصنعوا منه رجل الجزائر وباني نهضتها الحديثة.

الطاهر بن عاشور:

قال ابن باديس:(وأن أنس لا أنسى دروسا قرأتها من ديوان الحماسة على يد الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أول ما قرأت عليه. فقد حبّبني في الأدب والتفقه في كلام العرب، وبثّ فيّ روحا جديدا في فهم المنظوم والمنثور، وأحيت فيّ الشّعور بعزّ العرب والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام)[12].

ومن هذا القول الموجز نخلص إلى إن الطاهر بن عاشور أصّل في نفس ابن باديس:

-عز العروبة وذلك بتحبيب درس الأدب والتّفقه في كلام العرب إليه، وإحياء فهم شعر العرب ونثرهم.

محمد النّخلي القيرواني:

قال ابن باديس:(وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العلمية، وهما من مشايخي الذين تجاوزا بي حدّ التّعليم المعهود من أمثالهما لأمثالي إلى التّربية والتّثقيف، والأخذ باليد إلى الغايات المثلى في الحياة، أحد الرجلين الشّيخ حمدان لونيسي القسنطيني نزيل المدينة ودفينها، وثانيهما الشيخ محمد النّخلي المدرّس بجامع الزّيتونة المعمور رحمهما الله)[13].

ومن القول الموجز نستفيد الآتي:

- تأثر ابن باديس بسعة فكر أستاذه محمد النخلي.

البشير صفر:

قال ابن باديس:(وأنا شخصيّا أصرّح بأن كراريس البشير صفر الصغيرة الحجم هي التي كانت لها الفضل في اطّلاعي على تاريخ أمتي وقومي، والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت بي اليوم لأن أكون جنديا من جنود الجزائر)[14].

نستفيد فعلا من هذه الفقرة القصيرة:

- أن الأستاذ البشير صفر كان له الفضل في التطعيم المبكر لشخصية ابن باديس بالمصل المضاد لأهداف المحتل الفرنسي الرامي إلى طمس هوية الشعب الجزائري.

- أن الأستاذ البشير صفر صنع من ابن باديس الجندي الجزائري الشرس للاحتلال في الدفاع عن هوية الجزائر.

إن الجوّ الأسريّ الذي نشأ فيه ابن باديس وترعرع حتى أصبح رجلا يُحتفل به عند عودته من تونس لما نال الشهادة المؤهلة له، كان جوا عربيا إسلاميا بحتا، ومن مظاهره الخلق الحسن، والمحافظة على ما حافظ عليه الأجداد من شعائر دينية؛ كالصلاة والصوم والزكاة والحج، وكان ذلك دعما قويا وأساسا متينا في تحفيزه للوصول إلى درجة قيادة الجماهير والشعوب نحو استقلال الأوطان؛ إذ يُعد ابن باديس في مقدمة من

بنى النّهضة الجزائرية ومن رواد الإصلاح فيها، ومن مجددي الفكر الإسلامي في العصر الحديث(ونموذج المناضل المؤمن بأمته وحقها في الحرية، وجذوة ذكاء، وحيوية تتأجج كفاحا وفكرا وتوجيها وكتابة وأسفارا، شخصية بلغت من الغنى والتّنوع درجة كانت معها متفوقة في السياسة والأدب والفقه والصحافة والشعر والوعظ على حد سواء)[15]، و(الجدير بالذكر أنّ الشيخ عبد الحميد بن باديس يرجع الفضل في تكوينه العلمي والفكري إلى هؤلاء الأساتذة الذين ذكرناهم، فهم الذين علّموه وخطوا له مناهج العمل في الحياة ولم يبخسوا استعداده الفطري حقه)[16].

حقّا ما لم يتحدث عنه رجال التاريخ والباحثون في دراساتهم بشيء من التفصيل ولم يعطوه حقه من التنقيب والتفسير والتعليل المنهج الاعتدالي الذي ظهر بقوة في زيارات ابن باديس إلى تونس والتي اضطرته إليها أحداث جسام، لقد استطاع ابن باديس أن يكون من خلال منابرها أحد عظماء العرب والمسلمين، بشهادة أهل العلم والاجتهاد ممن حضروا تلك الاحتفالات؛ من شخصيات العالم العربي والإسلامي؛ علماء وكتاب وصحافيين كتبوا عن عظمته وفصاحته ومشاعره نحو أمته وجنديته بين قومه، وهو يلوح بذراعيه العاريتين من فوق منصاتها إلى المستقبل المشرق للأمة العربية والإسلامية.

موجز زيارات ابن باديس غير التحصيلية إلى تونس

– عام 1921م كانت للوقوف على الحالة العلمية للطلبة الجزائريين، وفيها دعاهم إلى الأخذ بأسباب العلم والتقدم. وذلك عنصر من عناصر الاعتدال في المنهج.

– عام 1936م وكانت زيارة قصيرة جدا دامت أربعة أيّام فقط، بسبب كثرة مشاغله في الداخل الجزائري وارتباطاته السياسية. وهذا عنصر من عناصر الاعتدال في المنهج.

وقد استقبل بحفاوة منقطعة النظير، أقامت على شرفه الجمعية الخلدونية احتفلا ضخما، ألقى فيه ابن باديس خطابا علميا وسياسيا مؤثرا. ثم حظي بلقاء العالم محمد الصالح بسيس ودار الحديث بينهما حول ضرورة الاتحاد والعمل بين الجزائريين والتونسيين. وهذا عنصر من عناصر الاعتدال في المنهج.

– عام 1937م. توجه ابن باديس للمشاركة في إحياء ذكرى أستاذه البشير صفر.

وعرفانا بجميل أستاذه تناول الكلمة وأشاد فيها بمناقب الرجل خاصة خدماته للجالية الجزائرية بتونس الشقيقة.

كما شارك ابن باديس بهذه المناسبة في مظاهرات فكرية وثقافية نظمتها منظمات طلابية جزائرية بتونس، منها جمعية الطلبة الجزائريين التونسيين، والجمعية الودادية الجزائرية، واعتلى منصتهما، وكان محور حديثه حول:

- أمله في تحقيق وحدة مغاربية.
- ضرورة العمل على إفشال سياسة المحتل الرامية إلى قطع الصلة بين الدول العربية خاصة الشمال الإفريقي منها.
-التذكير بالأوضاع المزرية والصعبة للجزائريين.

-جويلية عام 1937م وهي الزيارة الأخيرة له لهذا البلد. وكان الهدف منها تلبية الدعوة للمشاركة في الاحتفالات التي أقيمت للأستاذ عبد العزيز الثّعالبي بمناسبة عودته من منفاه، والذي دام أربعة عشر عاما.

استغل ابن باديس وجوده بين المشاركين و:

- هنأ العائد من المنفي.
- دعا إلى رأب الصدع، وإلى إصلاح ذات البين بين أركان الحزب الدستوري جراء النزاع حول الزعامة بين قدامى الحزب وجدده.
- وذكّر الجميع بضرورة الوقوف صفا واحدا في وجه المحتل.

هذه هي باختصار زيارات ابن باديس إلى تونس، وكلّها تبدي بوضوح عناصر منهجه المعتدل في الدعوة إلى الإسلام.

إنها زيارات قليلة إلى هذا البلد لكن عطاءها المعنوي لا يمكن حصره، فقد تعدّى حدود تونس والجزائر ليصل إلى بلدان العالم العربي والإسلامي، إنّه من خلالها اخترقت سمعته البحار(وأصبح الشّرق يعتبره من أكبر رجاله)[17].

والسؤال المطروح:

لماذا لم تكثر مثل هذه الزيارات مادامت توصف على صفحات الجرائد بهذا الوصف العجيب؟

ربما يعود السبب فيما نعتقد إلى أسباب داخلية منها:

- اهتمام ابن باديس البالغ بالمشكلات الداخلية خاصة ما تثيره الجبهة السياسية.

- انشغاله الكبير بتكوين جيل قائد في الجزائر.
- مقاومته لسياسة المحتل خاصة سياسة الاندماج والتجنيس.
- المحافظة على الوحدة القومية للشعب الجزائري.
- محاربة الطرق الصوفية العميلة للمحتل.

تجاوب الصحافة التونسية مع بلاغة الخطاب باديسي

لاشك أنّ ابن باديس(الذي قُوبل وقُوطع بعواصف متوالية من تصفيق الاستحسان ... وقُوبل بعاصفة من الهُتاف الحار، وأنّ ابن باديس الذي أبدع وأدهش وقطع الأنفاس من شدة التأثير، وابتلت المحاجر وسالت الدموع)[18] لم يصل على هذه الدّرجة العالية، والمرتبة القدسيّة في نظر النّاس إلاّ بما كان يختاره من مواضيع لخطبه وأحاديثه وجلساته في زياراته. وقد تجلت فيما ذكرناه سابقا وهي كافية لإثارة كوامن الشعوب العربية التي تعاني الكثير من شظف العيش، وعتمة الجهل. وإنها أوتار حساسة كان عبد الحميد بن باديس يضرب عليها فيجعل من مستمعيه(سرابا من الطيور الكاسرة، أو قطيعا من الخرفان)[19].

إن الفن الأدبي الذي وظفه ابن باديس في زياراته التي نتحدث عنها هو فن الخطابة، وإنّه لفن ازدهر بشكل ملحوظ في الجزائر خاصة بعد تزعم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للعمل الإصلاحي(فقد كان النّاس يلتقون ويخطبون تحت لواء جمعية العلماء، أو تحت الزاوية العلوية، أو تحت لواء مؤتمر الزوايا الذي كان ينعقد بالجزائر)[20].

غير أنّ نصوص الخطب التي ألقيت لم يسجل منها إلا القليل خاصة منها التي كان يلقيها عبد الحميد بن باديس. ويعود سبب ذلك إلى أنّها كانت تُرتجل ارتجالا. فأهمُّ الخطباء في الجزائر في هذا الوقت: عبد الحميد بن باديس، أبو يعلى الزّواوي، محمد البشير الإبراهيمي، العربي التبسي، محمد السعيد الزاهري.

يقول عبد الملك مرتاض إنّنا بعد الاطلاع على كثير مما ورد في الصحف والمجلات الجزائرية خلال هذه الفترة اقتنعنا بأنّ النّشاط الخطابي كان كبيرا في الجزائر، وأنّ الخطباء فيها كانوا كثيرا أيضا نسبيا، غير أنّ هؤلاء الخطباء جميعا ذابوا في عبقريتين اثنتين وسيطرا على فن الخطابة خلال ربع قرن كامل بحيث نجد ابن باديس يهيمن على العقد الرابع من هذا القرن)[21].

لاحظنا ونحن نكتب عن زيارات عبد الحميد بن باديس أنّ خطبه التي ألقيت في تلك الاحتفالات كانت مرتجلة، وأنّ الكثير من حضروا تلك الأنشطة حاولوا الحصول على ما سمعوه من ابن باديس كنصوص من أجل نشرها في دور الصحافة، وتعميم الفائدة على سائر المسلمين، وقد قال ابن باديس في هذا الشأن:(وقد رغب إليّ بعض الإخوان أن أنشر ما ألقيته في الخطبة الأولى والثانية فاعتذرت عن نفس النّص لأنني لم ألقهما إلا ارتجالا)[22].

وفي الوقت نفسه كان الكثير ممن يهتم بمثل هذه المسائل قد سجل بعض هذه الخطب أو نُتفا منها، ونشرها على صفحات بعض الجرائد المتتبعة للحركة الإسلامية وقتئذ، ومن هذه الجرائد: النهضة، الزهرة، ألبتي ماتان، الإرادة، المجلة الزيتونة[23].

ماذا قالت الصحف التونسية عن ابن باديس وخطبه؟

أما صحيفة الزّهرة فقالت:(وأحيلت الكلمة إلى حضره الأستاذ الجليل والمصلح الكبير فضيلة الشيخ السيد عبد الحميد بن باديس ممثل الجزائر فتقدم وارتجل خطابا فياضا بالشعور الإسلامي الصميم والعاطفة الإفريقية السامية...)[24].

وقبل أن يقوم بتعداد مناقب الشيخ بشير صفر أكّد ابن باديس على نقطة هامة جدا وهي:

ـــــ التأكيد على روابط العوبة والاسلام التي تتميز بها تونس مع الجزائر بل مع بلدان المغرب العربي بصفة عامة، وتلك مبادئ تعلمها من أستاذ التونسي بشير صفر، الذي زرعها في صدر ابن باديس لتصنع منه في النهاية الجندي الذي يدافع عن الجزائر.

وجريدة الإرادة ركزت في نقلها لكلمة ابن باديس على الأثر الذي أحدثه في القاعة بين الحاضرين الذين وكان من بينهم رجلان يمثلان الإدارة التونسية والباي،(فلمّا أنهى العلامة المسلم العامل الشيخ عبد الحميد بن باديس في خطابه الرائع الذي اهتزت له القاعة وأدمى أكف الحاضرين بالتصفيق المتواصل رأينا وجه كل(م م برتول) و(ديقوا) يربد ويمتقع ويصفر ويخضر تبعا لما كان يسمعان من أقوال الخطيب الصريح الذي كان يوجه القنابل المحرقة كما يتفق، فيستزيده الجمهور منها بإظهار التشجيع والاستحسان، وما انتصف الشيخ خطابه حتّى لم يطق(م. ديقوا) أن يرى ويسمع أكثر مما رأى وسمع، فانسلّ من مقعده وبارح القاعة لا يلوى على شيء... ومع

ذلك فما كاد رئيس الخلدونية يعلن عن راحة قدرها 15 دقيقة حتّى بادر(م. برتول) بالخروج إلى الهواء النّقي الصالح لمعالجة الاختناق)[25].

وأكدت صفيحة (البتى ماتان) التّونسية أنّ حفلة أقيمت بمناسبة انقضاء عشرين عاما على وفاة بشير صفر أستاذ عبد الحميد بن باديس الذي لبى دعوة القائمين عليها(وشهدها جمع من تونس؛ من مثقفين وأعيان ومحامين وأطباء وكبار الموظفين وسائر الأحزاب السياسية والجمعيات الرياضية والأدبية والفنية وفرق الكشافة، وكل رجال القلم والصحافة، وكان عدد الخطباء والشعراء حافلا، وإنّنا لنذكرهم حسب الترتيب السادة:

(عبد الرحمن كعاك، العربي الكردي، الشيخ شاكر، محمد علي الغباني، محمد الوتبتاني، بلحسن بن شعبان، المقداد الوتبتاني، عبد الرزاق كرباكه، محمد الخوخة)[26].

لقد ذكرت الصحيفة بإيجاز كلمات الشعراء والخطباء الذين تعاقبوا على المنصة، والذين أحيوا من خلالها ذكرى البشير صفر بتسجيل تاريخه الحافل بالأعمال والمآثر، لكنّها راحت بإعجاب شديد تصفها ابن باديس وخطبته وتصف الجمهور الذي تناغم معها فقالت:(والشيخ ابن باديس يمثل حقّا الزّعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام بصوته النّاري، يستفز الجماهير، فيثير الحروب أو ينزل في القلوب سكينة السلام، وهو الرّجل الذي وصل في القطر الجزائري إلى درجة التّقديس، وتسير وراءه تسعة أعشار الأمة، أمّا سمعته فقد اخترقت البحار وأصبح الشرق يعتبره من أكبر رجاله، وإنه لنعم الخلف للبشير صفر)[27]، ثمّ وسّعت الجريدة وصفها في الخطيب حتى شمل ملامحه من نظرات وإشارات وحتى لحيته ونبرات صوته وهدوئه وسحر كلامه الذي أسر العقول كما قالت الصحيفة:(وإنها لطلعة هائلة، طلعة الشيخ ابن باديس، مُحيًّا قد ارتسمت فوق صفحته أسطر الانقطاع للنفع، والتّضحية في سبيل المجموع، تكتفيه لحية قد اقتُبست من الليل الأدهم سواده، فهي تزيد حدّة نظراته النّارية، تلك النظرات التي تُصدر أشعة برقية سحرية، تُفقد من وقعت عليه اطمئنانه واعتداده وتنوّمه. تدثر الشيخ جلاّبة بيضاء كان في وسطها كأنه الشيخ القادم من عالم آخر، وكان أثناء خطابه يشير بذراعيه العاريتين إشارات هي في آن واحد إشارات الذي يبارك، وإشارات الذي يقتل، ويصحب إشاراته نبرات صوت عالية، تخترق أحيانا طبقات الفضاء، وتكتسي أحيانا أخرى هدوء العظمة والجلال، وإنّ نبرات صوته تنتزع منك الإعجاب انتزعا، ثم تجتث من صدرك ما أنت مقتنع به من رأي، وتجعل منك عبده ومِلْك يمينه، فيكفيك كما

يريد حسب فكره النيّر، ثم يجعلك تحس بإحساسه، وتفكر بتفكيره، وطالما تكون مقتنعا فإذا ما رجعت إلى نفسك وفكّرت في الذي سمعت منه وجدت أفكاره حقائق متينة لا تدعمها حجّة. وأخيرا إنّه لرجل قادر، وإنه لمنوِّم ساحر)[28].

إن قيمة ما ذكر ابن باديس حسب الصحيفة لا تفنى؛ لأنها كالسيل الذي يكتسح المدن والبوادي، فيحيي سكانها، ويميت أشرارها، وأن ابن باديس حسب وصف الصحيفة يشبه الزعيم سعد زغلول ويستطيع أن يجعل من الجمهور(سربا من الطيور الكاسرة أو قطيعا من الخرفان وهذا ما نستطيع أن نصف به هذا الرجل الخارق للعادة)[29].

حقّا إن ابن باديس حسب الصحيفة قلل من قيمة الخطب التي تعاقبت في المنصة. فعندما(سكت وصفّقت له النّاس تصفيقا لم أر مثله في حياتي، أصبح كل كلام بعد ذلك غير مساغ، فما صفّق النّاس للشعراء إلاّ تصفيقا تُوجِبُه الآداب)[30].

أما مجلّة الزيتونة التي تمثل الجامع فلم تبخل على ابن باديس بالمدح والثناء والتعظيم والتبجيل فقد جاء فيها مقال بعنوان: اقتبال المجلة الزيتونية للشيخ عبد الحميد بن باديس.

ذكرت المجلة أنّ علماء الزيتونة هم الذين تشرفوا باستقبال ابن باديس لمكانته في العالم العربي، وأقاموا له عدّة احتفالات نظمتها الفروع الأدبية والهيئات العلمية التّابعة لجامع الزيتونة، وهم الذين أعطوه فرصة الكلام ليعبر عن حنينه إلى الجامع، واشتياقه إلى البلاد التّونسية التي كان كثيرا ما يقول عنها:(حقّا. إنّ لتونس هوى روحيا بقلبي، لا يضارعه إلاّ هوى تلمسان، أعرف ذلك من انشراح في الصدور، ونشاط في الفكر، وغبطة في القلب لا أجد مثلها إلاّ في ربوعها، ومن نعم الله عليّ أن يسّر لي التردّد بين الخضراء والبهجة مرتين، وقد كانت آخرهما في تونس ذات مظهر ممتاز، ومغزى سام)[31].

لقد خاض ابن باديس –حسب المقال– في مواضيع شتى ذات بال منها:

1 التنويه بجامع الزيتونة: اعتبر ابن باديس جامع الزيتونة منبع السعادة والهداية في الشمال الإفريقي، وإنّه المنبع الفيّاض الذي تصدر عنه كلّ حركة علمية أو إصلاحية.

2 المنهج الإصلاحي الذي ينتهجه جامع الزيتونة كفيل بأن يقود الأمة بنجاح ويسير بها إلى الهدف المحدد لها(وممّا يزيد في قيمة هاته التّصريحات أنّه جاهر بها بعدما اختبر

النّاس وشاهد ما ينطوي عليه الكثير ممن يتزعمون الحركات العامّة، وليس لهم رسوخ في الدّين من التّلاعب والعبث وبيع الذمم بأبخس الأثمان)[32].

3 التّنويه بدور علماء الزّيتونة: يعتبر ابن باديس رجال مؤسسة الزيتونة ناجحين في أعمالهم لأنهم استطاعوا بعلمهم وإتقان عملهم أن يخرّجوا جموعا من طلاب العلم على منهج الشريعة الإسلامية الصحيحة.

4 تأصيل فكرة تقوية الرّوابط العلمية بين الشّعبين التونسي والجزائري.

5 وجوب الإكثار من تبادل الزّيارات النّافعة بين أقطار المغرب العربي.

6 الإسراع في تقليص الفوارق التي تظهر من حين إلى آخر بين الشعوب العربية والإسلامية ومنها في تونس والجزائر، ودفع علماء البلدين إلى الاهتمام بالمنهج الإصلاحي الدّيني الأصيل.

7 ضرورة الوصول إلى الغاية المنشودة يقتضي أن تكون الدّعوة في سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

8 اعتبار التّشدد في الدين لا يؤدي إلاّ إلى إهمال الفروض.

خاتمة:

إنّ الحفاوة الكبيرة التي استُقبل بها عبد الحميد بن باديس خلال رحلاته إلى تونس خاصة سواء من العلماء أو الأعيان أو المنظمات أو الهيئات العلمية والأدبية، واهتمام صحافة وجرائد تونس بنشاط عبد الحميد بن باديس شكلا ومضمونا، تؤكد بقوة اعتماد رواد الحركة الوطنية والإصلاحية ومنهم ابن باديس الزيارات وإدراجها في سلم أولويات المنهج التّجديدي القائم على الوسيطة والوضوح في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، كما تبرز فعالية أداة الخطاب المستخدمة في نقل الأفكار إلى الجماهير.

كما نلاحظ أن تأثير الزيارات التي يقوم بها الأدباء والعلماء قد يتساوى مع وسائل الإعلام أو يفوقها في توجيه الرأي العام، أو يعوضها خاصة إذا ما كانت الشعوب تعاني من معضلة الاضطهاد الفكري والثقافي كما هو شأن الجزائريين أثناء الاحتلال الفرنسي.

ونلاحظ أيضا من خلال هذا البحث أن هذه الزيارات غير التحصيلية لم تؤخذ بعين الاعتبار من حيث البحث الأكاديمي سواء لدى الطلبة أو الأساتذة أو المؤسسات العلمية لدى الدولة الجزائرية بعد الاستقلال.

المراجع والاحالات

[1]ــ عبد الرحمن، الجيلالي: مجلة الأصالة، ع 13، مارس، أفريل 1973م، ص 204.
2 ــ أنور الجندي: الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، الدار القومية، القـاهرة، مصر، 1965، ص 52.
[3]ــ عبد الملك، مرتاض: فنون النثر الأدبي فـي الجزائـر 1931م، 1945م، ديـوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م، ص48.
[4]ــ م ن، ص 49.
[5]ــ محمد البشير، الإبراهيمي: سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين، المطبعـة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 1935م، ص 41.
[6] – يقصد الإمام محمد عبده.
[7]ــ م ن، ص 42.
[8]ــ م ن، ص ن.
[9]ــ رمضان، حمود: حقيقة الشعر وفوائده نظرة عامة وبحث لطيف، الشهاب، ع 85، ص9.
[10]ــ م ن، ص ن.
[11]ــ مصطفى بن حلوش:(الاحتفال الرابع بافتتاح مدرسة دار الحديث بتلمسان)، الشهاب، مجلد 13، الجزء 8، ص 355.
[12]ــ ابن باديس: (شيخ الاسلام بتونس يقاوم السنة ويؤيد البدعة ويغري السلطة بالمسلمين)، الشهاب،ع 16، السنة الأولى، 24 أفريل 1936م، ص 1.
[13]ــ عبد الحميد، بن باديس: كلمة المحتفل به)، الشهاب، مجلد 14، ع 5، جمادى الأولى 1357هـ، ص 289.
[14]ــ ابن باديس: (في سبيل وحدتنا أيضا، في تونس العزيزة)، الشهاب، مجلد 13، عدد 5، جمادى الأولى 1356هـ، ص5.
[15]ــ اللجمي، (أديب: في ذكرى ابن باديس)، المعرفة، وزارة الثقافة، الجمهورية السورية، حزيران 1967م، ع 4، ص 188.
[16]ــ تركي، رابح: عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 167.

[17]ــ م ن، ص 187.

[18]ــ ابن باديس: (في سبيل وحدتنا أيضا، في تونس العزيزة)، الشهاب، مجلد 13، عدد 5، جمادى الأولى 1356هــ، ص 255.

[19]ــ م ن، ص ن.

[20]ــ عبد الملك، مرتاض: فنون النثر الأدبي في الجزائر، مصر سابق، ص 281. عن مجلة الرشاد ع 41، 42، 22 ماي 1939م.

[21]ــ م ن، ص 283.

[22]ــ ابن باديس: (في سبيل وحدتنا أيضا، في تونس العزيزة)، الشهاب، مجلد 13، عدد 5، جمادى الأولى 1356هــ، ص225.

[23]ــ ينظر ابن باديس:(في سبيل وحدتنا أيضا، في تونس العزيزة)، الشهاب، مجلد 13، عدد 5، جمادى الأولى 1356هــ، ص225.

[24]ــ م ن، ص ن.

[25]ــ م ن، ص ن.

[26]ــ م ن، ص .

[27]ــ م ن، ص ن.

[28]ــ م ص، ص ن.

[29]ــ م ن، ص ن.

[30]ــ م ن، ص ن.

[31]ــ م ن، ص 225.

[32]ــ اقتبال المجلة للشيخ عبد الحميد بن باديس، المجلة الزيتونية، مجلد 1، جزء 5، ذو القعدة 1355هــ، ص 263